

البدواة في شعر نزار قباني بين الرفض والمسايرة

م.د. جاسم محمد جاسم
جامعة الموصل/ كلية التربية

تاريخ تسليم البحث : 2011/2/20 ؛ تاريخ قبول النشر : 2011/3/13

ملخص البحث :

تتجلى البدواة بوصفها سلوكا وثقافة في شعر نزار قباني تجليا يتمظهر بين الحين والآخر على نحو لافت ، ذلك ان من يقرأ تجربته الشعرية لا يعدم ان يجدها موسومة بميسم بدواة ينم عن فهم وقصدية واضحة في استحضار جانب معين من جوانب التراث الشعري العربي الذي تتلمذ عليه الشاعر _ في جزء من تجربته الشعرية _ واتكأ عليه معجما وصورا وتراكيباً ، وذلك بالرغم من كونه الشاعر الذي طفح شعره في الغالب بالوافر من المتعلقات الحضرية التي حاول توظيفها بوصفها مرتكزات ومضامين لبناء القصيدة . ان قصيدة نزار قباني لاشك قصيدة اجواء حضرية في عمومها ، الا أنّ بعض قصائده لم تغب عنها ملامح بدواة حاولنا ترسمها في هذا البحث.

Bedouinism In The Poetry Of Nazar Qabbani (between Acceptance and Refuse)

Lecturer Dr. Jasim M. Jasim
College Of Education -Mosul University

Abstract:

Bedonism ,as it represents a behaviour and culture ,appears in the poetry of Nazar Qabbani in a way that takes its aspect from time to time in an observable way. For, whoever reads the poetic experience of the poet ,he will find it characterized with bedounism emerging from clear understanding and intention in presenting a definite part of the Arabic Poetic Heritage that the poet has already studied -in a part of his poetic experience .He has invested that heritage in terminology , imagination , and structure in spite of being the poet whose poetry is full of civilian aspects that he has attempted to employ them as they represent bases and themes of composing poem. There is no doubt that The poems of Nazar have possessed a civilian atmosphere ,however some of his poems have got aspects of bedounism that we have tried to examine herein this study.

مدخل:

لعل من قبيل المفارقة - ولو ظاهرا - الاطمئنان إلى جدوى تقصي ملامح البداوة في شعر نزار قباني، وهو الشاعر المولع بترصد مفردات الثقافة الحضرية من مخمل وأساور، وهاتف وربطة عنق، وجريدة، ومطعم، ... الخ. وزجها بوصفها ركائز تصويرية حفل بها مشغله الشعري، إلا أن القراءة لا تعدم توفر جزء من خطابه الشعري على ملامح مغرقة في البداوة، خاصة إذا تقصينا البداوة على أنها سلوك غرائبي يتمظهر شعريا، لا منهج حياة فقط، فالشاعر يبدو من خلال شعره غير بعيد عن التأثير واضمار بعض السلوكيات البدوية، وإن عاش ترفا حضاريا ربما لم يتسنّ لغيره من مجايليه من الشعراء⁽¹⁾ لكننا لا نعدمه بالمقابل تأثيرا رافضا للبداوة منهجا وسلوكا كما سنبين، بحيث تبدو هذه الظاهرة عنده في مجمل وجوها مطلبيا فنيا تستحيل بموجبه رمزا شعريا يلون به تجربته الشعرية، وأيا كان موقف الشاعر من الموضوع - البداوة - فإن من المغربي نقديا تتبع ملامحها في شعره لأنها في ضوء ما تبين - وسنبينه هنا - أصبحت تشكل ثيمة أسلوبية في شعره على نحو يدعو إلى الوقوف عندها، ورصد تمظهراتها.

البداوة بين اللغة والاصطلاح:

لدى متابعة ما تدلي به متعلقات الجذر اللغوي (بدو) في المعجم، نجد ان مشتقاته ترتبط بمعاني عدة تسلط الضوء على بلورة مصطلح (البداوة)، وتسهم في بلورتها بوصفها دالة اجتماعية، ومن هذه المعاني:

1- معنى يرتبط بالسبق، والقدم الزماني، و "البَدْءُ أولُ الشيءِ، وبدأتُ الشيءَ، فعلتُهُ ابتداءً، والمُبْدِئُ من أسماء الله تعالى"⁽²⁾.

2- معنى مرتبط بالحركة والانتقال، فـ "بدأ من أرضٍ إلى أخرى، خرج منها إلى غيرها"⁽³⁾.

3- معنى مرتبط بالماء وطقوس السقي، فـ "البديءُ، البئرُ التي حفرت قبل الاسلام، والبديءُ، البئر التي لا صاحب لها... وفي الحديث: الخيلُ مُبْدَأَةٌ يومَ الوَرْدِ يُبْدَأُ بها بالسقي قبل غيرها من الأنعام..."⁽⁴⁾.

4- معنى مرتبط بالجفوة والخشونة، وفي الحديث "من بدا جفا، أي نزل البادية فصار فيه جفاء الأعراب"⁽⁵⁾.

ان المعاني والدلالات المرتبطة بها في أعلاه تكاد تكون أقرب المعطيات المعجمية ارتباطا بالمفهوم الاجتماعي للبداوة، فالبداوة قدم ومنهج حياة له قوانينه وثقافته التي يغلب عليها طابع الخشونة المتأتية من عدم الاستقرار الذي تتطلبه حياة البحث عن الماء، والكلاء،

كما أن طبيعة الحياة البدوية قد صاغت حياة أفرادها صياغة تعتمد الهيمنة الذكورية بوصفها القوة الأكثر فاعلية والاجدى في بيئة لا ترحم الضعف⁽⁶⁾، والبدوي لا يلجمه قانون دولة لأن له قانونه القبلي البيئي الخاص الذي يشعره بأنه سيد نفسه شديد التعويل على رابطة الدم في كل طقوس حياته، وتعرف (الموسوعة العربية العالمية) البدو بأنهم "مجموعة من البشر يعيشون حياة الترحال وعدم الاستقرار باحثين عن الماء والمرعى لحيواناتهم، شديدو الاعتداد بالنفس، يمتازون بالشجاعة والكرم، والولاء للقبيلة."⁽⁷⁾

ان الشخصية البدوية اذن نتاج ظروف بيئتها العريضة بكل قسوتها وصعوبة الحصول على امدادات الحياة فيها، ولعل هذا ما طبع حياة البدوي بازدواجية تتجاذب اطرافها مزاجه النفسي بحيث ان القيم والسلوكيات التي يعيش عليها ولأجلها قد تبدو متناقضة، فهو ينهب ويغير في سنين القحط، لكنه في غاية الكرم، يمتن المرأة، لكنه يسيل الدم لأجلها، ومتشبع الى ابعد حد بمفهومي العرض والشرف اللذين تشكل المرأة بؤرة محركتهما.

ويسلط علي الوردي الضوء على هذه التناقضات في السلوك البدوي اذ يرى ان البدوي يريد لنفسه ان يكون غالبا لا مغلوبا في كل شؤون حياته، ان نزعة التغالب على شخصيته تجعله ينظر الى الامور حسبما توحيه إليه، انه يريد ان يكون ناهبا لا منهوبا، أمرا لا مأمورا معتديا لا معتدى عليه، معطيا لا قابضا، مقصودا لا قاصدا، مغنيا لا مستغنيا، مجبرا لا مستجبرا، حاميا لا محميا، مرجوا لا راجيا،.. الخ⁽⁸⁾، ويبدو ان الاطار العام لهذه المتناقضات كان له ردة فعل في صياغة الشخصية العربية، لينعكس بين الحين والآخر على شكل ملامح في الكثير من التجارب الابداعية التي يشكل نزار قباني عينة منها.

- البداءة سلوكا شعريا - استشراف العينة:

اذا كانت الحضارة هي الشكل المتطور المتمخض عن بداءة الإنسان الأول كما يذهب ابن خلدون في مقدمته⁽⁹⁾. فان الشاعر اليوم والشعر بالتالي هو الوريث والابن الثقافي للشعر العربي القديم بكل موروته الفكري وهو موروث قائم على البداءة كما يرى أدونيس الذي يذهب إلى ان العصر الجاهلي يمثل البداءة والبطرة والعفوية ويرى ان القواعد التي تؤسس للشعرية العربية في عصر معين هي قواعد أسس لها واثبت أركانها العصر الجاهلي⁽¹⁰⁾. وهذا لا يعني قطعا عدم قدرة القصيدة العربية الحديثة على اكتساب شخصيتها المتحضرة الخاصة بها، الا انه لا يعني أيضا براءة هذه القصيدة من مظاهر بداءة حفلت بها مضامينها وان كتبت بالشكل الحديث - القصيدة الحرة وقصيدة النثر - اذا سلمنا بان الشكل العمودي أو قصيدة الشطرين هي المظهر البدوي_الجاهلي للقصيدة على مستوى الشكل⁽¹¹⁾، فعلى الرغم من ان نزار قباني مثلا قد طرح في خطابه الشعري من حيث الشكل رؤى مفادها هوساً بالمغايرة

وسعيه إلى حداثة شعرية خاصة به، إلا أنه ظل وفيًا للقصيدة العمودية - الشكل البدوي للكتابة الشعرية - بالرغم من عزفه على وتري القصيدة الحرة وقصيدة النثر، فضلا عن ملامح (بداوة شكل) سيتم تبيانها في مضان هذا البحث، وإلا فقد شكلت البداوة ملمحا واضحا في خطابه الشعري وبخاصة على مستوى المضامين والأفكار سواء أكان مساهرا لهذه البداوة أم رافضا لها، وهذا ما سنقف عنده في النماذج التطبيقية الآتية التي اقتضت المعالجة على وفق الترتيب المنهجي الآتي:-

1- ملامح البداوة على مستوى الشكل.

2- ملامح البداوة على مستوى المضمون.

3- رفض البداوة.

1- ملامح البداوة على مستوى الشكل

بالرغم من أن للشاعر تجربته الخاصة والمتفردة على مستوى الوصف وجدة التراكيب، والتصويرات إلا أن المدقق في شعره من زاوية التأثير يلمح في نصوصه تطعيما للصورة والوصف والتركيب عنده (ببداوة شكل) تظهر بين الحين والآخر متلبسة بنصوصه على المستويات الآتية:

أ- مستوى الألفاظ التي لم تعد تتناسب في العصر الحاضر على الأقل مع روح العصر، إذا أخذناها بوصفها مفردات معجمية خارج سياقها، إلا أن الشاعر ينجح غالبا في إعطائها حياة جديدة وانعاشها داخل التركيب اللغوي أو الصورة الوصفية التي تأتي ضمنها اللفظة، ومن هذه الألفاظ على سبيل المثال (الهوداج، الحداء، السيف، الخنجر، الناقة، الظباء، الحور العين، الغطارفة، السبايا، العوسج، الربابة، الشوح، القبيلة، الثريد، الحريم، الثأر، الرمح، الخلاخيل، الحمى، الديار.. الخ)⁽¹²⁾. وغيرها كثير فواضح أن هذه الألفاظ تكاد تشكل معجما بدويا لارتباطها بحياة البدو، وتناغمها مع اهتماماتهم.

ب- مستوى التراكيب ودلالاتها:

لم يخل شعر نزار قباني من تراكيب دالة على الحضور البدوي في المستوى الشكلي، ومن هذه التراكيب مثلا تركيبة الدعوة بالسقيا كقوله:

ألا سقى الله أياماً بحجرتها كأنهن أساطيرُ الأساطير⁽¹³⁾

فالدعوة بالسقيا طالما طرب لها وبها البدوي في شعره، حتى أنها أصبحت مرتكزا اختتاميا للكثير من القصائد العربية لسنين طويلة، وتقليدا شعريا لم يزل يوظفه الشعراء إلى

اليوم، بالرغم من ان "حديث السقي قديم في أدبنا العربي، وطبيعي ان يدعو الشاعر بالسقيا في بيئة اشد ما تكون افتقارا إلى الماء والكأ" (14).

ومن هذه التراكيب أيضا تركيبة (الهتيكة الأزار) التي تستدعي ردة فعل الثأر للعرض والشرف، يقول في قصيدة (قصة راشيل شوازنبرغ) معولا على الروح البدوية للثأر من هاتكي إزار الأخت:

"أختي التي علقها اليهود في الأصل

من شعرها الطويل

أختي أنا الهتيكة الأزار

على ربي الرملة والجليل

أختي أنا التي ما زال جرحها العليل

ما زال بانتظار

نهار ثأر واحد، نهار ثأر" (15).

ج- بداءة التصوير، ويمكن ملاحظة هذه البداءة عند الشاعر في لوحات تصويرية تتم عن ذائقة بدوية في النظر إلى الجمال الكامن في المرأة وفي المادة المصورة، والأمثلة كثيرة على بداءة التصوير عند الشاعر، منها مثلا تصويره لـ(جرّ الذبول)، وسحبها، فقد حلت هذه الصورة في نصوص الشاعر بوصفها مرتكزا جماليا من مرتكزات الوصف البدوي للمرأة، فالمرأة البدوية حريصة على مفهوم (الستر) لجسدها ومفاتها، وهذا اقتضى طول ملابسها وكونها فضفاضة تخفي ما لجسدها من مفاتن، لذا فهي تجرر الذيل عند المشي، وطالما كان هذا التجريد موضوعا لا تكاد تخلو منه قصيدة غزل، تتغنى بجمال المرأة عند الشاعر البدوي. وهو تركيب تسلسل إلى شعر نزار في أكثر من موضع، يقول مذكرا الحبيبة بايام خلت كانت فيها تلك الحبيبة تجرر ذيل فستانها، وكاننا بازاء لوحة عشق بدوي:

"أنا بقايا البقايا من عهد جرّ الذبول" (16)

ويقول في موضع آخر:

"فأن ترفقتُ بها استكبرتُ وجررتُ ضاحكةً ذيلها" (17)

وكذلك يمكن ان ينضوي تحت ظاهرة بداءة التصوير، مفهوم (رسول الهوى) الذي يسعى لضمان التواصل بين حبيبين في بيئة متشددة لا تسمح للعاشقين فيها بالتلاقي سواء بسبب التشدد القبلي في موضوعه (الشرف) و (العرض) من جهة، أو بسبب كثرة التنقل التي درجت عليها حياة البادية طلبا للماء والكأ، وما يتسبب ذلك من بعد جغرافي بين الحبيبين على نحو يقتضي وجود رسول يضمن التواصل بينهما، يقول نزار في قصيدة "ترصيع بالذهب

على سيف دمشق، مصورا ظاهرة التراسل تصويرا بدويا يدعم بداوته تراكيب يا ابنة العم"
وظباء الحمى، وذبح العيون للرسول من تحت النقاب فضلا عن وقوفه وقوف البدوي على
الطلل قائلا:

كم رسول أرسلته لأبيها	ذبحتهُ تحت النقابِ العيونُ
يا ابنة العم، والهوى أموي	كيف أخفي الهوى، وكيف أبين؟
ما وقوفي على الديارِ وقلبي	كجبنني قد طرزته الغضون؟
لا ظباء الحمى ردن سلامي	والخلايلُ مالهن رنين ⁽¹⁸⁾

وفي لوحة أخرى يتكئ الشاعر على دلالة (النزول) ومتعلق (الخلايل) في اعطاء
صورة بدوية مفادها الشكوى من البعد الكامن تحت ضغط الطبيعة وقسوتها، والحنين إلى
متعلقات (الحبيبة) التي علمت السرو ان يلبس الخلايل بالساق أسوة بها فالشاعر هنا إنسان
حضري في بيئة لا تخلو من النهر والسرو، لكنه بدوي العشق، يحن لأحبته الذين لا يستقرون
على أرض، ويشتاق لصوت خلايل الحبيبة مع التأكيد على ظاهرة الموت من شدة العشق
التي هي بالأساس ظاهرة بدوية يقول الشاعر:

قُلْ لِلَّذِينَ بِأَرْضِ الشَّامِ قَدْ نَزَلُوا
قَتِيلُكُمْ لَمْ يَزَلْ بِالْعِشْقِ مَقْتُولًا
وَالنَّهْرُ يُسْمِعُنَا أَحْلَى قِصَائِهِ
وَالسَّرُّوُ يَلْبِسُ بِالسَّاقِ الْخَلَايِلَ⁽¹⁹⁾

وأما في قصيدة "مرحبا عراق" فيبدو النفس البدوي واضحا في تصويره للحسرة
والأسف على ما آل إليه واقعه القومي، فنرى الشاعر يسأل عن العباءات، والمها، الظباء،
ويتحسر على موت الخيلاء بقريش بوصفها المركز الديني والقومي له ولاجداده يقول واصفا
ومتحسرا:

مرحباً يا عراقُ كيفُ العباءاتُ؟
وكيفَ المَهَمَّا؟ وكيفَ الظُّباءُ؟
يا فلسطينُ لا تُنادي قريشاً
فقريشٌ ماتتْ بها الخُيلاءُ
لا تُنادي الرجالَ من عبدِ شمسٍ
لا تُنادي.. لم يبقَ إلا النساءُ
ذروةُ الذلِّ ان تموتِ المروءاتُ
ويمشي إلى الوراءِ الوراءُ⁽²⁰⁾

ان قريشا هنا رمز لعنفوان الأجداد المنطفئ اليوم، والعراق مجلى للمها والظباء ورجال (عبد شمس) استحالوا نساء لا ينفعون لحرب، وهكذا تبدو المقطوعة حافلة بالمفاهيم والصور المستقاة من معطيات البداءة صوراً ومفاهيم.

2- البداءة على مستوى المضمون:

وتكاد تكون أبرز تمظهرات البداءة على هذا المستوى متمركزة حول موضوع المرأة. لم يكن موقف نزار قباني موقفاً ثابتاً تجاه المرأة في خطابه الشعري، فهو يرفعها حيناً، ويعبر عن همومها، ويشاركها حربها من أجل ما يراه سلباً لحقوقها، بل وحتى يستبطن دواخلها في الحديث بلسانها في الكثير من شعره⁽²¹⁾، مؤشراً بذلك حضرية التعامل معها، لكنه في نصوص كثيرة يحاول الحط من شأنها، ويتخذ خطابه تجاهها صيغة أخرى، أكثر خشونة وعلى نحو يذكرنا بنظرة البدوي إلى المرأة بوصفها تابعاً وملكاً للرجل، يقول في قصيدة (همجية الشفتين):

لُفِّي تحاريرَ الهوى وامضي	أنا في السماءِ وأنتِ في الأرضِ
غوري مع الشيطانِ، لا أسفُ	ولتبتلعكِ زوابعُ البَغَضِ
ما أنتِ من بعدي سوى ظلٍ	انقاضُهُ تبكي على بعضِ
عودي حقارة طينة، وغدا	تبكينَ زَهَرَ الموسِمِ الغَضِ ⁽²²⁾

ان هذا الموقف المتشنج من المرأة في النص ونعتها بالظلل الذي لا حياة فيه ومفردات (غوري) و(حقارة طينة) ما هي الا استيقاظ لقسوة البدوي عندما يكره خاصة وان المخاطب

في نظره مذنب أصلاً بكونه (امرأة)، فكيف به امرأة ترفضه وهو الرجل الشرقي - البدوي - المشبع بالفكرة الذكورية؟

ان الفكرة الذكورية التي تعلي من شأن الرجل مهما فعل وتحط من شأن المرأة مهما فعلت تستغرق في شعر الشاعر كما نصياً كبيراً وواضحاً بوصفه منطقاً بدوياً، يرى في المرأة ملكاً صرفاً لا يحق لأحد - ولا المرأة نفسها - ان ترى فيه مالا يراه الرجل⁽²³⁾، فالبدوي هو السيد على الماحول طبقاً للسان كما سبقت الإشارة، والمرأة عنده سقط متاع غلفه بمفهوم (الشرف) لكي يتضمن الا تمس بسوء، انه يمتهن المرأة في ذات الوقت الذي يسيل دم القبيلة اذا مست بسوء لأجلها، وهذا ليس متأتياً من حبها وإكرامها قدر ما كونه متأتياً من الحرص على "الاملاك الخاصة" وإثباتاً لمبدأ "التغالب" وتأكيداً على النزعة الذكورية. يقول نزار واصفا حبه على الطريقة البدوية بمنطق ذكوري صرف:

"وأنا بدويٌّ

أُخزنُ في شفتيَّ الشمسَ

وأُخزنُ في رئتيَّ الريحَ

وأُخزنُ في أعصابي الثأرَ

فأنكسري فوق سرير الحب أنكسري

مثل دواة الحبر

وانتشري كالعطر الهنديّ

فاني اللحمُ وأنت الظفرُ"⁽²⁴⁾

ان تصريح الشاعر هنا ببداوته تجاه المرأة مواز تماماً ومؤكّد لرغبته في انكسار المرأة فوق سرير الحب مثل دواة الحبر، ومعلوم ان "دواة الحبر" متعلق حضاري يلح الشاعر على انكساره بتكرار الفعل (انكسري) في النص، لتتحول علاقة الحب عنده إلى حوار بالأظافر على الطريقة البدوية التي تطبعت على الخشونة.

ويبدو ان انكسار المرأة عند الشاعر لا يرضي نزق البداوة المكبوتة في داخله، إذ نراه في نص آخر يصف "الشفاه بالامية" ويصف نفسه بالمعلم والهادي والمبشر قائلاً:

أُمَيَّةُ الشَّفَتَيْنِ لَا تَتَبَرَّمِي

إِنِّي أَتَيْتُكَ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا

حَتَّى أَعْلَمَكَ الْهُوَى فَتَعَلَّمِي

مَا زَالَ قَانُونُ الْقَبِيلَةِ حَاكِمًا

ان ظاهر النص يوهم بان الشاعر ينتصر للمرأة، ولكنه انتصار لها على قوانين القبيلة بقوانين القبيلة ذاتها، صحيح ان تركيبة (امية الشفتين) قد فعلت فعلها الجمالي بالكناية عن البراءة ظاهرا، إلا انها براءة أريد لها ان تصل إلى حد السذاجة، والرجل هو المعلم، والهادي والمبشر، لكن من يعلم ويهدي ويبشر ويلقن المرأة محاولة الحكم والثورة على قوانين القبيلة لا يفترض ان يعنف ويستعلي ليصل إلى مبتغاه ويحقق هدفه التعليمي، ان نزارا في هذا النص مثل المعلم الذي يطلب بكل خشونة واستعلاء من التلميذ ان لا يكون خشنا، ان يدعو المرأة إلى ان تكون واثقة بقدراتها بطريقة تفقدها ثقافتها بقدراتها، وما ذلك إلا لاستيقاظ البدوي بداخله الذي اعتاد على ان ينهب لا ان يأخذ ويأمر ولا يناقش إذعانا للمبدأ الذكوري الذي يربض بداخله.

وإذا كنا فيما سبق قد وقفنا عند بداءة نزارية موضوعها المرأة، فان شعر نزار لا يخلو من ملامح تتمحور حول فحولته الشعرية التي حاول إثباتها في اكثر من نص في خطابه الشعري، فالمفاخرة والتغالب، وهما نزعتان بدويتان حفل بهما الشعر العربي منذ عصر النقائض، بما فيهما من استعلاء وتضخيم للأنا الشعرية، نجدهما أول ما يطالعنا في تقديمه لديوانه وذلك في قصيدته "ورقة إلى القارئ" التي يقول فيها مفتخرا بقدرته الشعرية افتخار أي شاعر بدوي يرى في فحولته غاية السيادة والعظمة:

ومثل بكاء المآذن سرتُ	إلى الله أجرحُ صحو المدى
أعبى جيبى نجومًا، وأبني	على مقعد الشمس لي مقعدا
تخيلتُ حتى جعلتُ العطورَ	تُرى، ويُشمُّ اهتزازُ الصدى ⁽²⁶⁾

ان المضمون الفكري العام لهذه الأبيات يمتح من منطق بدوي فالشاعر يعيش انهماما بذاته الشعرية شأنه شأن الشاعر العربي القديم في عصر البداءة عندما كانت القبيلة تتطلب شاعرا يكافح ويفاجر ويناجز عنها وذلك اذا نظرنا إلى الأبيات من جانبين:

الأول: ترسمها لمضمون احتضنته البيئة البدوية أصلا، وصار تقليدا شعريا استساغته الذائقة العربية، فتغنى به شعراؤها على مر العصور، فالبادية هي التي تطلب عندها اللغة والفصاحة، وهي بالتالي مولد الشعراء الذين تربى نزار في الشطر الكبير من ثقافته على ارثهم فالبيت الأخير أعلاه لا يختلف كثيرا عن قول الشاعر:

أنا وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانهُ أنثى، وشيطاني ذَكَرٌ⁽²⁷⁾

ولا عن قول المتنبي:

وما الدهرُ إلا من رِوَاةٍ قصائدي إذا قلتُ شعراً، أصبحَ الدهرُ مُنْشِداً⁽²⁸⁾

الثاني: النبوة المستعلية في الأبيات، والايان المطلق بقدرة الذات فيها إلى التعالي المتمثل بـ لفظ الجلالة (الله)، المدى، النجوم، الشمس.. وما ذلك الا انعكاس لنزعة السؤدد التي لا يرضى البدوي بغيرها في مجتمعه القبلي، ولنزعة الاعتداد العالي بالنفس التي قد تصل إلى حد الانهمام بالذات أو النرجسية التي لم يسلم نزار من الاتهام بها⁽²⁹⁾.

3- رفض البداوة:

لا تسير قصائد نزار قباني على وتيرة واحدة فيما تتناوله من ظواهر ما تعبر عنه من موضوعات، ذلك انه شاعر قلق، سريع الملل من الثوابت، يعشق المرأة بتحضر، ويعنفها ببداوة، ينتصر للرجل عليها، وينتصر لها على الرجل يتحدث بلسانها واصفا أدق مشاعرها، ثم يتحدث بلسان الرجل مزدرياً تلك المشاعر، وربما كانت هذه الازدواجية في شخصه هي التي أعطت هذا الأدب لجميل بتناقضه، وهو تناقض لم تسلم منه ظاهرة البداوة في شعره، فبعد ان رأيناه يتكئ شكلياً على بعض معطيات ومعجم البداوة ثقافة وشعراً، ويمارس بداوته متلذذاً بها مع المرأة، وموظفاً للمعطيات البدوية في الاسلوب على المستوى الشكلي فيما سبق من البحث فاننا نلمح بالمقابل مظاهر رفض صريح للبداوة بوصفها سلوكاً وثقافة والامتة على هذا الرفض كثيرة في خطابه الشعري، وتكاد قصيدة (بلاغ شعري رقم 1)⁽³⁰⁾ تمثل منتهى الفكر المتحضر في النظر إلى العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو فكر يظهر من خلال رفضه للموروث البدوي بوصفه ثقافة وسلوكاً سيطراً ولا يزالان على الفكر الشرقي الذي يحرص الشاعر على تغييره بتقويض أركانه، يقول مخاطباً المرأة، وثائراً على بداوة الفكر المتمثلة بمفردات (القبيلة)، و (الثريد)، تقطيع النهود، وسلطة الاجداد:

"إياك أن تتصورني أنني أفكرُ فيكَ تفكيرَ القبيلةِ بالثريدِ

وأريدُ أن تتحولني حجراً أُطارحُه الهوى

لا فرقَ عندي إن أردتِ ولم تُريدي

لا أنتِ من صُنْفِ العبيدِ ولا أنا أهتمُّ في بيعِ العبيدِ

أنا هاربٌ من أيِّ إرهابٍ يمارسُه جُذودكِ أو جدودي

أنا هاربٌ من عصرٍ وأدِّ الفكرِ أو من عصرِ تقطيعِ النُهودِ"⁽³¹⁾

وفي قصيدة (إليه في يوم ميلاده) الموجهة إلى جمال عبد الناصر، يستذكر الشاعر مرارة هزيمة حزيران التي اهتز لها العالم العربي آنذ، فيقول رافضاً الواقع الذي أدى إلى الهزيمة، ورافضاً العناد والكبرياء اللذين يمنعان العربي من ان يتعلم من تاريخه، ويعتبر بأخطائه:

هُزِمْنَا وما زلنا شتاتَ قبائلٍ نعيشُ على الحقدِ الدفينِ ونثارِ

ساتركُ خلفي نائقي وعباءتي وأمشي، أنا في رقبةِ الشمسِ خنجرٌ⁽³²⁾

ان الشاعر في هذين البيتين يرفض التشتت القبلي، ومنطق الثأر من الأخ وابن العم وتناسي العدو، لذا نراه يصرح بترك الناقة والعباءة، للدلالة على رفض القيم البدوية التي بسببها كانت الهزيمة، وهذا ما يصرح به في قصيدة (هوامش على دفتر النكسة) أيضا التي يقول فيها صراحة متهجما على (العنتريات) التي تشي بلا جدوى التفكير بمنطق البداءة الموغل في الكبرياء إلى الحد الذي يستهين معه الإنسان بقدرة عدوه:

"إذا خسرنا الحرب لا غربة

لأننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها بمنطق الطلبة والربابة"⁽³³⁾

وإذا كانت البداءة علة يشكو منها نزار في معظم قصائده السياسية منذ قصيدة (هوامش على دفتر النكسة)، التي شكلت انعطافة حولته من شاعر يكتب عن الحب والحنين إلى شاعر يكتب بالسكين كما يصرح في القصيدة ذاتها⁽³⁴⁾، إلا ان البداءة بوصفها مظهرا فرض نفسه على الذائقة العربية قد ظل يعتمل في داخل نزار الشاعر، فتلون بها أسلوبه شكلا، وأطلت - هذه البداءة - برأسها مضمونا في الكثير من القصائد المتمحورة حول المرأة بالرغم من انه يدعو في طروحاته الشعرية بين آونة وأخرى إلى نظرة أكثر تحضرا تجاه المرأة، وهي نظرة مارسها الشاعر في العديد من قصائده، إلا ان اللاشعور المحرك للبداءة الموروثة بداخله لم يكن يمنعه من ممارسة بدائته تجاهها على النحو الذي مر بنا، وهذا لا يشكل تناقضا في شخصية نزار قباني قدر ما يشكل واقع الرجل العربي الذي برز نزار صورة مقروءة له، ذلك ان جذوره البدوية لا تزال تفعل فعلها فيه وتتسحب على سلوكه وطبيعته، فهو أي العربي يحيا حياة الحضر لكنه نادرا ما يتجاوز تلك البداءة المتأصلة فيه بكل إفرازاتها وقيمها كالكبرياء والذكورية والمفاخرة، وهو ما يفسره علي الوردي بالقول "وقد لاحظت بعد دراسة طويلة ان أغلب العرب مصابون بازواج الشخصية لأنهم وقعوا تحت تأثير عاملين مختلفين هما البداءة والإسلام، ذلك ان قيم البداءة تحرض على الكبرياء وحب الرياسة، وتفتخر بالنسب، وأما الإسلام فهو دين الخضوع لله والتقوى والعدالة"⁽³⁵⁾.

ان البداءة في شعر نزار قباني - سايرها الشاعر أم رفضها كما مر بنا - شكلت واقعا ترك بصمته وأفصح عن تأثيره على المحمول الثقافي والآليات الأسلوبية للخطاب الشعري للشاعر الذي يبدو ان رصد ملامحها في خطابه هذا يحتاج إلى مساحة بحثية أكبر وأكثر شمولاً.

المصادر والمراجع الكتب

1. الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، 3 مجلدات، دار المستقبل، بيروت، د. ت.
2. البطولة في الشعر العربي قبل الاسلام، مؤيد اليوزبكي، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة رسائل جامعية، ط1، 2008 .
3. الثابت والمتحول، الكتاب الثاني، تأصيل الأصول، ادونيس، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1977 .
4. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، علي الوردي، دار الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 2002 .
5. شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي، مصطفى سبيتي، جزءان بمجلد واحد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2007.
6. شرح ديوان أبي النجم العجلي تحقيق مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
7. الشعرية العربية، ادونيس، تقديم ايف بونفوا، دار الآداب، بيروت، ط1، 1989.
8. قصتي مع الشعر، سيرة ذاتية، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط1، 1970.
9. لسان العرب، ابن منظور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق عامر أحمد حميد، مراجعة عبد المنعم خليل، ط1، 2005.
10. لغة الشعر بين جيلين، ابراهيم السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1980.
11. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، د. ت.
12. النرجسية في شعر نزار قباني، خريستو نجم، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، ط1، 1982.
13. النقد الثقافي، عبدالله محمد الغدامي، الشركة العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ط2، 2001 .
14. وعاظ السلاطين، رأي صريح في تاريخ الفكر الاسلامي في ضوء المنطق الحديث، علي الوردي، دار كوفان، لندن، ط2، 1995 .

دوريات الشبكة الالكترونية (الانترنت):

بين البداوة والحضارة، منتديات لفته العربية، الصفحة الرئيسية. www.logol.com

الهوامش:

- (1) عن حياته _ولادة ونشأة_ ينظر قصتي مع الشعر، نزار قباني: 25_56
- (2) لسان العرب، ابن منظور، مج 1: مادة (بَدَوَ): 213
- (3) م. ن.
- (4) م. ن.
- (5) م. ن.
- (6) ينظر: البطولة في الشعر العربي قبل الاسلام، مؤيد اليوزبكي: 52
- (7) ينظر بين البداءة والحضارة، منتديات لفنة العربية. www.lgol.com
- (8) ينظر: علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: 34_35
- (9) المقدمة: 122.
- (10) ينظر: الثابت والمتحول، الكتاب الثاني، تأصيل الأصول، ادونيس: 37.
- (11) ينظر: الشعرية العربية، ادونيس، تقديم: ايف بونفوا: 31.
- (12) ينظر على سبيل المثال لا الحصر تردد بعض هذه المفردات في قصائد: ورقة الى القاريء: 7 وقصيدة بلاغ شعري رقم 1: 369... وغيرها: الاعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، مج 1.
- (13) الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1: 98.
- (14) لغة الشعر بين جيلين، إبراهيم السامرائي: 29.
- (15) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2 : 9
- (16) م. ن، مج 1: 206.
- (17) م. ن، مج 1: 112.
- (18) م. ن، مج 1: 116.
- (19) م. ن، مج 1: 143.
- (20) م. ن، مج 1: 109.
- (21) ينظر على سبيل المثال لا الحصر القصائد: رسالة من سيدة حاكمة، مج 1: 155، وقصيدة يوميات امرأة لا مبالية، مج 2: 275-303، وقصيدة حبلى، مج 2: 158، وغيرها كثير ضمن اعماله الشعرية الكاملة.
- (22) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1: 72.
- (23) ينظر: أبيات معينة تصب في المضمون ذاته في القصائد: طائشة الضفائر: 75، مصلوبة النهدين: 79 إلى زائرة: 35، من الاعمال الشعرية الكاملة مج 1، وغيرها كثير لا مجال لحصره.
- (24) م. ن، مج 2 : 434.
- (25) م. ن، مج 2: 304.
- (26) م. ن، مج 1: 7.

- (27) البيت لأبي النجم العجلي، ديوانه تحقيق مصطفى سبيتي: 36.
- (28) شرح ديوان المتنبي، تحقيق مصطفى سبيتي، ج2: 126.
- (29) ينظر: كتاب النرجسية في شعر نزار قباني، خريستو نجم: 27 ومابعدھا. وينظر ايضا: النقد الثقافي ، عبدالله الغدامي: 59_62
- (30) الاعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، مج2: 369.
- (31) م. ن، مج 2: 369
- (32) م. ن، مج2: 104.
- (33) م. ن: 21.
- (34) م. ن: 21.
- (35) وعاظ السلاطين: 19.